علماء من بني ورتيلان "الشيخ المولود الحافظي نموذجا"

أ. محمد الصغير بن لعلام*

لقد كانت منطقة بني ورتيلان، فيما يسمى الآن بالقبائل الصغرى، قلعة من قلاع العلم، كما كانت قلعة من قلاع الجهاد في سبل الله والوطن. والمتصفح لتاريخ هذه المنطقة يجد أنها كانت دائما رباطا للعلماء العاملين، وقطبا موجبا يجلب إليه أفذاذا من الشخصيات العلمية من مختلف أنحاء الوطن، وحتى من المغرب الأقصى فقد أورد الشيخ الحسين الورتلاني، في رحلته المشهورة، عديدا من أسماء هؤلاء الذين قدموا إليها، من مشارق الأرض ومغاربها، واتخذوها مقرا لهم.

ونحن الآن نجهل الكثير عن الموروث العلمي لهذه المنطقة، في الفترة التي تسبق القرن التاسع الهجري، لأن هذا التراث قد قضت عليه السلطات الاستعمارية، إما بالسلب، أو بالحرق، واليسير الذي بقي منه موزعا ومشتتا هنا وهناك، ولكن ابتداء من القرن التاسع، وخاصة بعد ضعف الدولة الحفصية في بجاية، ثم سقوطها في يد الأسبان، تكونت مدارس، ومعاهد، أو ما نسميه في المنطقة "**ثيمعمرين**" أي المعمرة أو ما نسميه الآن بالزوايا. وإني جازم بأن للعلامة والولي الصالح الشيخ سيدي يحي العبيدلي تأثيرا كبيرا في ذلك ،ومن أراد التوسع في ذلك فعليه بالرجوع إلى رحلة الشيخ الحسين الورتلاني، التي أشرنا إليها آنفا، والمسماة "**نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار**". فإنه قام بمسح شامل للبيوت العلمية ومعاهدها في المنطقة.

---

* أستاذ وكاتب صحفي.

وأول تلك المعاهد التي أنشئت في المنطقة هي زاوية فريحة، التي أسسها الشيخ سيدي يحي بن موسى، رحمه الله، والمعروف في المنطقة باسم سيدي (خموسى)، وهو تلميذ الشيخ يحي العيدلي، وهو الذي أشار عليه بتأسيس الزاوية، وكان ذلك في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري. وقد وصف الشيخ الحسين هذا الشيخ بأنه رجل ذو شأن كبير، كما وصف أبناءه من بعده بأنهم مشهرون بخصلتين: القراءة والإطعام. وقد بقي هذا المعهد يؤدي مهمته إلى أن دمرته طائرات فرنسا، في سنة 1956، أثناء الثورة التحريرية الكبرى، لأنه يوجد في منطقة تعتبر من أهم معاقل الثورة في القبائل الصغرى، وخاصة في السنوات الأولى للثورة، ومن أشهر خريجي هذا المعهد الشيخ الشهيد محمد العدوي المسيلي، أحد أبرز أساتذة معهد عبد الحميد بن باديس في قسنطينة وقد درست عليه شخصيا في معهد ابن باديس، في بداية الخمسينات، وهو الذي أخبرني بنفسه عندما علم أنني من المنطقة، وقد استشهد الشيخ العدوي رحمه الله تحت التعذيب في مستشفى قسنطينة سنة 1956، رحمه الله .

وسأنتقل للحديث عن الفترة المعنية بالدرس، أي من نهاية القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين، وهي الفترة التي عاش فيها العلامة الشيخ المولود الحافظي، رحمه الله، والشيخ الثائر المجاهد الفضيل الورتلاني رحمه الله، ولن أتعرض في هذه الدراسة للشيخ الفضيل، لأني رأيت لزاما علي أن أعد دراسة تفصيلية بقدر الإمكان، حول حياة الفضيل الورتلاني وجهاده في سبيل الإسلام، والوطن والعروبة، الذي لم يتوقف، إلا بتوقف قلبه عن النبض.

ولكن أرى من اللازم علي أن أشير، ولو باختصار، إلى بعض علماء المنطقة الذين ذاع صيتهم، وطبقت شهرتهم الآفاق في الجزائر، وخارجها، في عهد الدولة الجزائرية أي في العهد العثماني ، وأول هؤلاء :

1. العلامة الشيخ الحسين بن محمد السعيد الورتلاني، الجد الأعلى للشيخ الفضيل الورتلاني.

ولد في بني ورتلان سنة 1125 هـ وتوفي بها سنة 1193 هـ وهو صاحب الرحلة المشهورة برحلة الورتلاني، نشأ في بيت علم ودين، تعلم عن أبيه ،حفظ القرآن الكريم وهو صغير، في مسجد القرية الذي كان يشرف عليه أبوه، ثم انتقل إلى معاهد وزوايا المنطقة ،يغرف منها ما شاء الله له من العلوم الشرعية واللغوية، حتى أصبح أعلم علماء المنطقة، وأجزم بأنه قد أخذ عن الشيخ يحي أوحمودي، وهو من أكبر علماء المنطقة، وأتقاهم وأخلصهم لله، وسأشير إليه فيما بعد، ولو بكلمات قليلة.

وقد درس الشيخ الحسين، في المعاهد التي درس فيها عندما كان يافعا، كذلك درس في بجاية، وتخرج على يديه عدد وافر من الطلبة، الذين أصبحوا فيما بعد حاملي لواء العلم، والمعرفة في المنطقة، واشتغل في التأليف، فألف عدة كتب في العلوم الشرعية خاصة، وللأسف الشديد لم نعثر بعد على هذه الكتب، ولكن نجد أثرها في أكبر عمل أنجزه الشيخ الحسين، وهو رحلته التي سماها "**نزهة الأنظار في فضل التاريخ والأخبار**"، التي نشرها العلامة الشيخ ابن شنب، في بداية القرن العشرين، وقد خرج فيها عن المعهود في زمانه، بانصراف العلماء إلى التأليف في الفقه، والتوحيد، وخاصة في التصوف، أما هو فقد انصرف ذهنه وتعلقت همته بالتاريخ والأخبار، بل نراه يأخذ على علماء عصره، ومن سبقهم، تقاعسهم عن الانشغال بالتاريخ، مع أن السيرة النبوية جزء من التاريخ.

ورحلته هذه التي تقع في حوالي 1000 صفحة من القطع الكبير، هي نتاج رحلته إلى البقاع المقدسة، لأداء فريضة الحج سنة 1179هـ، وتبدو لنا صورة الشيخ واضحة جلية، فهو عالم، عامل، تقي، لا يخاف في الله لومة لائم، صريح في آدائه، شديد على العلماء المتقاعسين، جريء

على الحكام الظالمين، وعلى الدولة التي تركت الأمور سبهللا، وتخلت عن مسؤولياتها السياسية، والثقافية، والاجتماعية، مما جعل البلاد تعيش في اضطرابات لا تنتهي، وفي حروب محلية بين القبائل والعروش وفتن طائفية لا تكاد تنتهي، حتى يشتعل أوارها من جديد.

ورحلة الشيخ الورتلاني، أعظم كتاب أرخ لوسط الجزائر وشرقها، بل وحتى لتونس، ومصر، والحجاز، والملاحظ أن الشيخ الورتلاني، لم يؤرخ للدولة، أو للحكام والأعيان، وإنما أرخ الحياة اليومية للشعب، وهو بذلك قد خالف الأسلوب المتبع قبله، من المؤرخين، والرحالة الذين سبقوه ـ وإن كان قد أخذ عنهم، أو على الأقل استفاد منهم ـ ومن أهم مميزات هذه الرحلة، ما يرد فيها بين الفينة والفينة من النقد الذاتي لأهل وطنه، وعقد مقارنات بين مختلف الأقاليم التي مر بها، فبين ما يمتاز به كل إقليم عن بقية الأقاليم الأخرى. ويقول د.سعد الله عن هذه الرحلة إنها تعتبر موسوعة أخبار عن جزء كبير من العالم الإسلامي في القرن 18م 12هـ، فهي من المراجع التي لا غنى عنها في هذا المجال، وأضيف أنه على الهيئات العلمية عندنا والدينية، أن تسعى لتحقيق هذا السفر الضخم من إنتاجنا الثقافي وطبعه، بعد أن تكون لجنة من العلماء المختصين في مختلف، الميادين لتحقيقه ونشره.

2. الشيخ يحي أو حمودي أو ابن حمودي، الجد.

هو من أحفاد الولي الصالح سيدي يحي بن موسى، مؤسس زاوية فريحة، ببني ورتيلان ـ وقد كان الشيخ يحي معاصرا للشيخ الحسين الورتلاني ـ، وقد ذكرت ذلك سابقا، غير أنه كما يستشف من كلامه، بالحديث عنه بكثير من التبجيل، والتكريم، والتقدير، كان أكبر منه سنا فهو يصفه في رحلته بـ "العالم الفاضل، الولي الكامل"، وولد الشيخ يحي الشيخ أحمد، وهو فقيه مثل أبيه، فقد أجازه شيخ الإسلام مرتضى

الزبيدي، وقد لقبه وهو الضنين بالألقاب إلا لمن يستحقها " الشيخ العالم الإمام الهمام العلامة فقيه الطالبين ومربي السالكين شمس المعارف.. شيخ الوقت سيدنا ومولانا الشهاب أحمد بن يحي بن حمودي ، نفعنا الله به، وتاريخ الإجازة صفر 1203 هـ، وقد أخبرني شيخنا الشيخ الطاهر آيت علجت، أطال الله في عمره، أنه اطلع على هذه الإجازة قبيل اندلاع الثورة، ولكن مكتبة آل حمودي، أتى عليها ما أتى على كل المكتبات في المنطقة، من حرق، وتمزيق، وسرقة، من قبل المستعمر الغاشم، إبان الثورة التحريرية.

والآن انتقل إلى المرحلة التي كانت الهدف من هذه الدراسة، وهي المرحلة الحديثة، وأود أن أشير إلى أني سأذكر بعض الأعلام، ليس على سبيل الحصر، وإنما كنماذج، ثم إني لن أتعمق في دراستهم في هذه العجالة، وإنما فقط إعطاء لمحة وجيزة عنهم، وقد أعود لإعطاء تلك الأسماء ما تستحق من الدراسة الشاملة الكاملة.

1. الشيخ السعيد أبهلول (فضلاء).

ولد في رجب 1276هـ الموافق لـ 1860 م في بني ورتلان، وبها توفي في صفر عام 1336 الموافق 1940م، وهو عميد علماء المنطقة في عصره، نشأ في بيت علم ،يتوارث فيه العلم أبا عن جد، منذ قرون، وكان لأسرته معهد علمي في إحدى قرى بني ورتلان، وبقي هذا المعهد عامرا إلى غاية اندلاع الثورة التحريرية، وحسب تحليلي الشخصي فإن جده الأكبر هاجر من بجاية إلى بني ورتلان، بعد أن فقدت بجاية مكانتها العلمية و الحضارية غداة احتلال الاسبان لها، فتفرق علماؤها، وفقهاؤها، ومثقفوها، شذر مذر في مختلف مناطق زواوة، وقد أخذ العلم في معهد أسرته، وكذلك في معاهد المنطقة وزواياها، وخاصة زاوية سيدي يحي بن موسى، في "فريحة" بني ورتيلان،(وليست "فريحة" الواقعة بعزازقة). وهو عميد علماء المنطقة كما أسلفت، مع كثرتهم، وهو فقيه لا يشق له غبار،

وقد كانت له فتاوى في مختلف مجالات الحياة، وكان من أبرز مؤيدي الشيخ ابن باديس في فتواه المشهورة حول التجنيس والتجنس ـإذ يرى الشيخ ابن باديس، رحمه الله، أن من تجنس بالجنسية الفرنسية، فقد خرج عن الإسلام، وكانت هذه الفتوى محل جدال ونقاش بين العلماء، من مؤيد ومعارض لأن الحوار أو الجدال في الحقيقة كان بين قطبين عظيمين، شيخ الإسلام في تونس العلامة الشيخ الطاهر بن عاشور، الذي كان لا يرى بأسا في التجنس بالجنسية الفرنسية، ورائد الإصلاح في الجزائر، العلامة الشيخ ابن باديس، الذي يرى عكس ذلك، ومستند الشيخ ابن باديس في فتواه تلك، هو أن من تجنس بجنسية أهل الكتاب فقد ولاهم على نفسه، والقرآن يقول : ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم**﴾[1]، ثم أن من تجنس بالجنسية الفرنسية تطبق عليه القوانين الفرنسية، والقانون المدني خاصة، الذي يحل محل الفقه الإسلامي، فيما يتعلق بما نسميه الآن الأحوال الشخصية، أو قانون الأسرة، وقد سئل الشيخ السعيد بهلول عن هذه المسألة ذات جمعة في بني ورتلان، فقال لسائليه: أرأيتم هذه الجبة البيضاء التي ألبسها، وهي بيضاء، لو أفرغت علبة حبر فصبغها، هل يمكن أن يزول بعد ذلك، قالوا :لا، قال كذلك فإن من تجنس فقد استبدل صبغة الله بصبغة الكفار والشيخ السعيد بهلول، هـــو أبرز شيوخ الفضيل الورتلاني، وهو الذي أشار عليه بالالتحاق بابن باديس، في قسنطينة، وقد ترك هذا الشيخ ذرية صالحة، عالمة، وإن لم تكن في مستوى أبيها، نذكر منهم الشهيد عبد المالك فضلاء، والمرحوم محمد الحسن فضلاء، الذي ألف عدة كتب عن الحركة الإصلاحية، وعن التعليم الحر في عهد الاستدمار، ومحمد الطاهر فضلاء، رحمه الله، المعروف بحماسه ودفاعه المستميت عن الشيخ ابن باديس وجمعية العلماء، وقد ألف كتابا مهما عن والده.

---

1. سورة المائدة، الآية 51.

2. الشيخ يحي أوحمودي الحفيد.

ولد سنة 1883 ببني ورتيلان، وتوفي سنة 1973 في الجزائر العاصمة، نشأ في بيت علم وتقى، فبيت آل حمودي من أشهر البيوت العلمية في بني ورتلان، منذ قرون، فقد كان جده الأكبر الذي تسمى باسمه من أفذاء العلماء كما أشرنا سالفا وكذلك أجداده الآخرون أحمد ومحمد وعبد الله ولسعة علمه وسمعته الطيبة واحترام أهل المنطقة له الذي لا يتجرأ أحد منهم على تجاوز قوله فقد كان القضاة الفرنسيون الذين يتداولون على ترأس المحكمة التي كانت تعقد في بني ورتلان أيام الاستدمار كثيرا ما يرجعون إليه ويطلبون رأيه في بعض القضايا التي تستعصي عليهم.

وقد كان الشيخ يحي من مؤسسي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين مع ابن باديس والإبراهيمي والعقبي والتبسي والمولود الحافظي، رحمهم الله جميعا، وهو عضو في المجلس الإداري الأول لهذه الجمعية وبقي حاملا لواء العلم بالتعليم والإفتاء والوعظ والإرشاد إلى أن توفاه الله في سنة 1973.

3. الشيخ لحلو وعمارة.

ولد في 1883 في بني خيار إحدى مناطق بني ورتلان وتوفي فيها سنة 1967.

أدرك أن كثيرا منا لم يسمع بهذا الاسم من قبل لأن صاحبه لم تكن همه أن يسمع به أو لا يسمع ، لأنه كرس حياته الطويلة للتعلم والتعليم، فحياته كلها تلخصه جملة قصيرة، "نتعلم ثم نعلم"، فهذا الشيخ علامة بمعنى الكلمة، أخذ العلم عن الشيخ عبد القادر البجائي، في بجاية، وعن الشيخين محمد الطيب شنتير، والسعيد أيجر في زاوية سيدي أحمد أويحي، بأمالو، في ضواحي مدينة أقبو، في وادي الصومام. ومن مفارقات الحياة عند هذا العالم أن أباه وإن كان ذا يسر، بل يعتبر من أغنى أغنياء المنطقة، إلا أنه لا يملك أي شيء من العلم، ولم يكن له حظ فيه، وهو فلاح بمعنى الكلمة، فكل

حياته في حرث الأرض، وغرس الأشجار، وقد قضى الشيخ لحلو عقودا من الزمن في الزاوية التي تخرج منها كشيخ لها، وقد تخرج على يديه جيل من الطلبة والعلماء ،من المنطقة، ومن بقية أصقاع الوطن، وقد كان حجة في القرآن يفد إليه الطلبة والعلماء من كل فج عميق للأخذ عنه، وقد كان العلامة الشيخ نعيم النعيمي، أستاذنا في معهد عبد الحميد بن باديس، في قسنطينة، من هؤلاء، وقد كان الفضل الأول له في التمكين للثورة في الزاوية، وفي المنطقة، فهو الذي مهد لها السبيل بشهادة الدكتور أرزقي أبرباش، الأستاذ بجامعة الجزائر حاليا، وأحد أبناء زاوية سيدي أحمد أويحي.

4. الشهيد الشيخ الصالح ايزمران.

ولد في 1905 بقرية فريحة، ببني ورتلان واستشهد في 1957/05/24، على يد عسكر الاستدمار، حيث أخذ من سوق الجمعة، واثنين من أصحابه، وأعدموا. نشأ هذا الشيخ في قرية فريحة، هذه القرية التي كانت تحتضن أقدم معهد، أو زاوية للعلم، في المنطقة التي أنشأها الشيخ سيدي يحي بن موسى، كما أسلفت في القرن التاسع الهجري، وبقيت منذ ذلك العهد تنير على ما حولها، وتضيء الأفق بالعلم والمعرفة، وتنشر العقيدة الصحيحة السليمة من كل الشوائب حتى في أحلك عصور التقهقر والشعوذة والدجل، وقد كان يفد إليها خاصة أبناء المناطق المجاورة، كالبرج، والمسيلة، وسطيف، وجيجل الخ..

والشيخ العالم إذا هو أحد الأبناء البررة لهذه الزاوية، ففيها حفظ القرآن واكتسب ما شاء الله من العلم والمعرفة، في الفقه، وبقية العلوم الشرعية، وكذلك علوم اللغة، أخذ عن شيوخ أجلاء، منهم أبوه الشيخ الشريف، الذي كان عالما جليلا درس في عدة زوايا في منطقة زواوة، وعندما بلغ شأنا لا بأس به من العلم أرسله أبوه إلى قسنطينة، ليتتلمذ على الشيخ ابن باديس، فكان هو والشيخ الفضيل زميلين في قسنطينة،

وبعد أن أتم دراسته عاد إلى قريته قبل وفاة الشيخ ابن باديس، ودعي إلى التدريس في زاوية سيدي يحي بن موسى، في منطقة زواوة، ثم حل محل أبيه على رأس زاوية فريحة، بعد وفاته في بداية الأربعينات من القرن الماضي، وقد بقي يدرس ويعلم ويفتي إلى أن استشهد في سنة 1957 كما ذكرت.

وأذكر أن هذا الشيخ ذات يوم الأربعاء 9 ماي 1945 عندما جمع أهل القرية عندنا، وكنت آنذاك في الثالثة عشر من عمري، فخاطب الناس، وقال: إن داعي الجهاد قد نادى، فمن تأخر منكم اليوم، فقد خرج من الإسلام. فسارع الناس إلى تلبية النداء، ومنهم والدي، رحمه الله، ونحن نعرف ما وقع بعد ذلك، ولم تنس له فرنسا ذلك، فرحم الله الشيخ الصالح الذي بقي، لم يبدل ولم يغير عالما مخلصا لله ولدينه ولوطنه إلى أن وجبت له الشهادة.

5. الشيخ المولود الحافظي

الشيخ العلامة المولود بن الصديق الحافظي الفلكي الأزهري، هذا هو الاسم الذي عرف به هذا العالم الجليل، ولد في قرية بني حافظ، إحدى قرى بني ورتلان سنة 1880 وفيها توفي سنة 1948، بعد مرض عضال، ألزمه المكوث في مستشفى قسنطينة قرابة العام، ثم أرجع إلى بيته بعد أن أصبحت حالته ميئوس منها فتوفي بعد لأي، وقيل إنه توفي مسموما من طرف السلطات الاستعمارية، وهذه قصة أخرى ليس محلها الآن.

وكان الشيخ ابن باديس يلقبه بالعلامة في جريدة المنتقد التي أصدرها في سنة 1925، وكان الحافظي أحد أعمدتها، هذا العالم العلامة فريد من نوعه تكاد حياته تكون أقرب إلى الأسطورة منها إلى الحقيقة، هذا الغلام الذي ولد في إحدى قرى بني ورتيلان، في عائلة فلاحية بسيطة، فقيرة، تقتات مما تجود عليها بعض القطع الأرضية التي تملكها، شأنها في ذلك

شأن أغلب سكان المنطقة، ألحق بمسجد القرية لحفظ ما تيسر له من القرآن الكريم، كان ذلك واجبا أكيدا على كل أطفال المنطقة ثم منهم من ينسحب بعد لأي، ومنهم من يستمر، فيحفظ القرآن في مسجد قريته، كما دخل إلى المدرسة الفرنسية في القرية، فتعلم الفرنسية، ثم التحق بإحدى زوايا المنطقة، وأجزم أنها زاوية فريحة، لأنها قبلة الطلبة في المنطقة، وسبب تأكيدي هو وجود مجموعة من الطلبة من قرية الشيخ، وبعض القرى المجاورة لها، عندما كنت أحفظ القرآن فيها في بداية عمري، وكانت هذه الزاوية في الفترة المدروسة تضم مجموعة من العلماء الأعلام، أمثال الشيخ الطاهر وعمر، الذي توفي في بداية القرن الماضي، والشيخ عمر أوبلقاسم، والشيخ أحمد أوحمودي، وغيرهم ،فنهل منها ما شاء الله له من مبادئ العلوم الشرعية واللغوية، فتفتحت أعين الطفل على أفق علمي فسيح، لم يكن يتصوره، أو يحلم به، أو يتوقعه، فعزم على الاستمرار في هذا الطريق والمضي في هذا السبيل حتى يجعل لنفسه مكانا بين العلماء، فرسم في ذهنه هدفا جوهريا لابد من تحقيقه، هذا الهدف هو الوصول إلى الأزهر الشريف، ولكن أين هو من الأزهر، وكيف يصل إليه، وأين الوسائل التي تمكنه من ذلك، وهنا تصطدم إرادة الطفل بإرادة الأب، فالطفل عازم على مواصلة مشوار العلم والتعلم، والأب عازم على كسر تلك الإرادة وإلحاق الابن بالعمل الفلاحي، ليساعده على حمل عبء الأسرة، وخاصة أنه هو الأكبر، واشتد الصراع بين الأب والابن، ولكن إرادة الله أرادت غير ذلك، في نفس الوقت الذي بلغ فيه الصراع أشده وقع ما لم يكن في الحسبان، إذ أن هذا الأب الغليظ الفظ الجبلي، الصلد الشديد، وقعت بينه وبن أحد أقاربه خصومة فوكزه كما فعل موسى فقضى عليه، وكانت تلك الطامة الكبرى التي نزلت على الأسرة والولد خاصة، فالأب في السجن، والدار والأسرة في رقبته والحنين إلى العلم في ضميره ووجدانه، فما العمل وهو الصبي الغض الذي لم يتعود على مثل هذه المسؤوليات، وليس معه

من يساعده، أو يوجهه، أو يدله على سواء السبيل، ولكن لابد له أن يتصرف، فاهتدى إلى أن أولى الأولويات هي إخراج أبيه من السجن، إذا فلا بد من محام، ولكن أين له ذلك ، وكيف يحصل على أتعاب المحامي، ثم اهتدى إلى الحل، هو بيع قطعة أرض يملكها أبوه، لكن الأب بعدما أبلغ بالقرار الذي اتخذه ، عوض أن يشكر له مسعاه ،ويحمد له فعله، هاج وماج وثارت ثائرته واشتد غضبه وأقسم بالإيمان الغليظة لابنه على أن أول فعل يفعله بعد خروجه من السجن هو إلحاقه بصاحبه أي بالمتوفى، والولد يعرف أن أباه إذا عزم على شيء فعله، وإذا أقسم بر بقسمه، فأيام حياته إذا معدودة بالأيام التي يقضيها الأب في السجن، ومع ذلك لم يتراجع عما عزم عليه من قبل، وهو إخراج الأب من السجن، وقد نجح في ذلك، وأعد خطة قبل ذلك ونفذها، إذ اختفى مباشرة بعد خروج الأب من السجن ولم يلتق به، ولم يخبر أحدا عما كان يعتزم القيام به فكانت وجهته تونس، مشيا على الأقدام، وبعد رحلة شاقة وتعب مضن مع الخوف والجوع وكل مظاهره البؤس والشقاء، وصل إلى تونس ومكث فيها سنين معدودة، عمل أعمالا مختلفة، ولكن أبرزها بيع تذاكر الحافلات (BUS) وقد ساعدته معرفته باللغة الفرنسية على ذلك، وأجزم أنه إلى جانب العمل كان يتردد على حلقات الدروس في جامع الزيتونة، ومن تونس سافر إلى مصر، وحقق أمنية العمر التي كان يتمناها منذ أن كان طفلا صغيرا يحفظ القرآن في مسجد القرية، أو في إحدى زوايا المنطقة، وهو الالتحاق بالأزهر الشريف، وقد لزم في الأزهر شيوخا أجلاء نهل من علمهم الواسع، واقتدى بسلوكهم الممتاز، أمثال الشيخ الدجوي والشيخ بخيت وما أدراك ما الشيخ بخيت صاحب الحاشية على المنهاج للقاضي البيضاوي في أصول الفقه، ومفتي الديار المصرية آنذاك، وبعد عشر سنوات من الدراسة تحصل شيخنا على أعلى الشهادات في الأزهر التي أهلته ليتبوأ منصب مدرس باقتراح من شيوخه لمدة ست سنوات، وبعد ثورة 1919

أجبرته السلطات الانجليزية بمغادرة مصر بعد أن وجهت إليه تهمة المشاركة في مظاهرات الطلبة في تلك الثورة، ولم تكتف السلطات الانجليزية في مصر بذلك، بل أعلمت السلطات الفرنسية وحذرتها منه فمنع من الدخول إلى الجزائر، إلا إذا ضمنه أحد، فلم يجد من يضمنه إلا قائد بني ورتلان آنذاك، وهو الباشاغا عمر بن عبيد، بطلب من إمام بني ورتلان وعائلة بن عبيد، من أكبر العائلات في المنطقة، أمدت السلطات الفرنسية بكثير من القياد والباشاغوات، منهم الصالح ومنهم الطالح، وهكذا سمح للابن العائد أن يلتقي بأهله وذويه، وأن يعانق تربة وطنه الذي خرج منه فارا من الأب والجهل والخوف، بزاد مادي مفقود، وزاد علمي يسير، لا يتعدى المبادئ الأولية في الفقه واللغة، وعاد إليه وهو العالم العلامة، خريج الأزهر الشريف، ومعتل سدة التدريس فيه.

وكان كل ما يفكر فيه بعد أن استراح قليلا، هو تبليغ ما تحصل عليه من العلم لأهل بلده، ولهذا كانت أول خطوة خطاها هو إنشاء مدرسة في قريته بمساعدة المحسنين من أهل المنطقة، لتلقي العلم على يد هذا الابن الوفي لأهله ومنطقته، وكان يقول إن نشر العلم فيه سعادة الدنيا والدين ـوهو واجب على الأمة أكيدـ ولما يمض وقت طويل حتى شاع ذكر الشيخ، وطبقت شهرته العلمية الآفاق فتسابقت إليه زوايا المنطقة تطلبه شيخا لها، فوقع اختياره على زاوية سيدي عبد الرحمن اليلولي، في جبال زواوة، (تيزي وزو)، إذ أن هذه الزاوية كانت تسير ديمقراطيا، من طرف طلبتها، وليس لها مقدم يشرف عليها، كشأن الزوايا الأخرى وقد كرس هذا الأسلوب في التسيير مؤسسها الأول الشيخ عبد الرحمن اليلولي، الذي حرم على أولاده التدخل في تسيير الزاوية، وبقيت كذلك إلى أن حولت إلى معهد لتكوين الإطارات الدينية، بعد استعادة السيادة الوطنية.

إذا قد وقع اختيار الطلبة على الشيخ الحافظي، وصادف هذا الاختيار هوى في قلب الشيخ، فتقبل هذا الاختيار بقبول حسن، وبمجرد أن التحق بالزاوية عمل على تطوير التعليم في الزوايا، من حيث الأسلوب والنوعية، وإدخال علوم حديثة في برامج التدريس، منها علم الفلك الذي كان من اختصاصه، ولهذا سمي بالفلكي، ولتجسيد هذا التجديد بنى ساعة شمسية في الزاوية، لضبط أوقات الصلاة، وما يزال هيكلها قائما إلى اليوم، وقد طاف بمختلف الزوايا مدرسا، وموجها، ومنبها لشيوخها، ومبشرا بطريقته التعليمية الجديدة. وباقتراح منه تحولت الزاوية الحملاوية من وادي العثمانية إلى مدينة قسنطينة، بعد أن طلب منه شيخها بتولي التدريس فحولها إلى معهد علمي حديث، يمكن أن يكون فرعا لجامع الزيتونة، وقد بقي هذا المعهد يقوم بأداء الرسالة التي سطرها له المولود الحافظي، حتى بعد وفاته، مواكبا لمعهد عبد الحميد بن باديس في قسنطينة، إلى غاية اندلاع الثورة التحريرية.

المولود الحافظي الصحفي

بعد التعليم فإن الصحافة هي الجهة الثانية لهذه الشخصية الفذة، فقد كتب إن لم يكن في كل الصحف التي صدرت في الجزائر منذ سنة 1920، إلى غاية وفاته سنة 1948، فإنه قد كتب في جلها وخاصة منها : المنتقد، والشهاب، والنجاح والبلاغ الجزائري، الذي هو مؤسسها، وصحف أبي اليقظان في غرداية، قد كان من أعمدة جريدة المنتقد التي أصدرها الشيخ عبد الحميد بن باديس سنة 1925.

وقد كان أول مقال نشره في المنتقد، في العدد الثالث منه، الصادر في 24 ذي الحجة 1345هـ الموافق 16 جويلية 1925م، تحت عنوان **"كتاب مفتوح إلى حضرات النواب المحترمين"**، وحاور في هذا المقال، ـوهو مقال طويل في أربع صفحاتـ بقوله : (مرحبا بكم أيها النواب المصلحون، إن رحبتم برغبات الأمة التي انتخبتكم واصطفتكم من بينها، وهنيئا لكم

أيها الفائزون، إن جازت في عهدكم أماني أمتكم، وكلتكم على تحصيلها، فليست الصعوبة في انتخاب هؤلاء الأبطال مهما تباعدت الآراء، وتنازعت الأهواء كما يتوهم، بل الصعوبة في انتخاب الرأي الصائب، للوصول إلى مرمى أمة تطلب حياة وطنية بحكم الجنسية والقانون ... وإعداد ملابس الجند قبل الدخول في المعركة السياسية، وإسناد القيادة في الدفاع عن حقوق الشعب، إلى القواد العظام الذين لهم خبرة بمكامن الخصوم وحصونهم...

فليست الخيبة في الذين ترشحوا ... ولم يقبلوا، بل الخيبة كل الخيبة في الذين ترشحوا وقبلتهم الأمة بالرحب والسعة، ثم تنازعوا المحمدة والفخر بما لم يفعلوا ـ وليتفكر حضرات نوابنا أنهم روح الأمة، تكونت في الآباء، والأبناء، والأمهات، فليعملوا على حياة هذه الروح الكريمة جهد طاقتهم...).

وفي المقال الافتتاحي للعدد الرابع للمنتقد، كتب تحت عنوان "*في عالم الصحافة*".

نقتطف منه ما يلي : "للصحافة في العالم المتمدن، منزلة عالية، ومكانة سامية في نفوس القراء الذين هم خيار الأمة، ومقياس رقيها، وانحطاطها، في مدنيتها وعمرانها البشري، وحالتها الاجتماعية، فيما تدعو إليه روابط الحياة القومية ودواعي النهضة الوطنية في تأسيس وحدتها، وتأليف جماعتها، حول مصالحها، وتعليم أبنائها سبيل رشدها....."

فالصحف اليومية السيارة هي كشمس الوجود، تشرق على قرائها المترامية في أقصى المعمورة أشعة الأخبار النفيسة، والحوادث المتجددة، فتكون الأمة بأجمعها على بصيرة تامة بما يدلي في الزوايا وما يدبر في طي الخفايا، فالصحف مدرسة الشعب الكبرى عليها مدار حياته الاجتماعية،

وهي في الحقيقة الواسطة العظمى في سبر الرأي العام والفكر الجمهوري، وهي التي تقود العامة إلى ميدان العمل، وهي لسان الشعب، تعبر عن الفكر العام، وتكشف الغطاء عن الخفايا، وتبين الحقائق بإيضاح، وترفع اللثام عن الحوادث المتخذة، وتنبه الجمهور إلى الواجبات الوطنية في الداخل والخارج ...

المولود الحافظي وجمعية العلماء

لقد كان الحافظي من أوائل الذين دعوا إلى تأسيس جمعية العلماء، بل ربما كان أول داع لذلك، في مقال نشره في العدد التاسع من مجلة الشهاب، تعقيبا على نداء صدر في مجلة الشهاب عدد 3 ص 15، دعوة للعلماء المصلحين دعا فيه صاحبه العلماء إلى تأسيس حزب ديني محض، غايته تطهير الدين مما ألصقه به الجاهلون، فكتب الحافظي مقالا في العدد التاسع ص 5 في الشهاب، يجدد فيه الدعوة إلى تأسيس مثل هذا الحزب، ومما قاله :" نود أن يوفق رجالنا العلماء إلى هذا منذ زمن بعيد، إذ حالتنا الدينية قد أصبحت في آخر نقطة من الانحطاط، وداخلتنا البدع من حيث لا نشعر، منذ زمن ليس بالقليل، فطال عليها العهد حتى أصبحت محل اعتقاداتها من الدين، عند كثير من العوام، ومحل تهاون وتقصير في كثير من العلماء، وبحكم سريان القوة الغالبة من السواد الأعظم عليها... ثم يمضي في تحليل عميق للحالة الدينية السائدة آنذاك، ثم يأتي باللائمة على العلماء لتقصيرهم في تبليغ الدين الصحيح، ثم يقدم اقتراح برنامج عمل لهذا الحزب في ثماني نقاط، ومن أهمها إنشاء مدارس يتعلم فيها النشْ بالطرق الحديثة، مع إدخال اللغة الفرنسية، ثم جمع الزكاة لتمويل مشروع المدارس، ثم تأسيس فروع لهذا الحزب في المدن والقرى تكون تحت مسؤولية الهيئة المركزية للحزب، ثم طبع الكتب ونشر مجلات علمية مع توسيع

دائرة الوعظ والإرشاد، بالطرق الفنية، وأخيرا ابتعاد الحزب عن الاشتغال بالسياسة، لأن ذلك من شأنه أن يعود على الحزب بالضرر والإبطال.

وعندما تأسست الجمعية، كان الحافظي من أشد الناس ابتهاجا بذلك، لأنه رأى دعوته قد أتت أكلها، ولو بعد حين، ولقد شغل المنصب الثاني للرئيس والمنصب الأول كان للشيخ البشير الإبراهيمي.

إن الدعوة لتشكيل هذه الجمعية استجاب لها كل من أحس في نفسه بأنه معني بالأمر، كل شخص صبغ على نفسه صبغة العالم، لذلك كانت الجمعية في بداية مشوارها تظم أطيافا وأصنافا من العلماء، تختلف مشاربهم وتتنوع مقاصدهم بل وتصطدم اتجهاتهم، فمنهم المصلح، ومنهم الوهابي، ومنهم الوسطي، ومنهم الطرقي، بل ومنهم من كان يميل نحو فرنسا في قرارة نفسه، بل ويدافع عنها في المنتديات، وخاصة من كان منهم يتولى منصبا خلعته عليه، فقد تناسوا خلافاتهم حسب ما اتفق عليه قبل تأسيس الجمعية، ولكن ذلك لم يكن ليدوم طويلا، إذ القناعات اختلفت، والمبادئ تنوعت، والأهداف تعددت، وبلغ ذلك ذروته في الاجتماع الذي وقع في 4 ماي 1932، وانسحب من الجمعية من يمكن أن نسميهم بالمحافظين، وشيوخ الزوايا، والطرق، ومنهم الحافظي، فأنشاوا جمعية جديدة سموها بجمعية علماء السنة، أسندت رئاستها إلى الحافظي، وذلك في 15 جويلية 1932م.

ولكن الجرثومة التي نخرت من قبل جسد جمعية العلماء، صحبت الجمعية الجديدة، فقضت عليها في أقل من سنتين فقط، وبعد حل هذه الجمعية انصرف الحافظي كعادته إلى العمل الفردي في الدعوة والإرشاد والتعليم، فهو فارس لا يشق له غبار في كل ميدان، فهو الداعي، وهو المعلم، وهو الصحفي، وهو المناظر والمحاور، والمجادل، ولكن بالحجة والبرهان، فقد ناظر الشيخ ابن باديس على صفحات الشهاب في عدة مسائل، منها

قضية "المكس"، وكراء الأسواق، ومنها مناظرة فيما قام به مصطفى كمال أتاتورك، إذ أيد ابن باديس أتاتورك، وبارك عمله بينما الحفاظي يرى ما قام به أتاتورك في القضاء على الخلافة الإسلامية خيانة للإسلام والمسلمين، وكذلك ناظر ابن باديس في مراتب العبادة، إذ يراها ابن باديس اثنتان: خوف وطمع، بينما الحافظي يراها ثلاث : خوف، وطمع، واعتراف. وقد أجاب الشيخ ابن باديس إجابة صريحة عندما طلب منه أن يدلي برأيه في مسألة التجنيس، إذ يقول: التجنيس حرام قطعا، لا يسوغ الإقدام عليه لما فيه من التزام ما يناقض شعائر ديننا، وأعظمها ظاهرة في تغيير سنة النكاح، والطلاق، والإرث، وكون الشعائر الأخرى سليمة من تبديل وتغيير ما يناقضها، لا تفضي بحال من الأحوال إلى جواز التجنيس مادام المساس ولو في شعيرة واحدة، هذا هو حكم الشرع في مقال بمجلة الشهاب ـ السنة 3 عدد 136 تحت عنوان "نحن في واد وأنتم في واد. فكيف يكون التفاهم"، ومن أراد الاستزادة في هذا لموضوع فليرجع إلى الشهاب. كما ناظر مناظرة طويلة الشاعر الأمين العمودي، في سلسلة من المقالات في الشهاب، وناظر كذلك الشيخ الطيب العقبي، وكذلك ناظر كلا من الشيخين أبي يعلى الزواوي، ومبارك الميلي، في ذبائح أهل الكتاب، واللحوم المستوردة من أوروبا، ومن أراد الإطلاع على هذه المناظرة الشيقة والممتعة والمفيدة فعليه بالرجوع إلى مجلة الشهاب، وكذلك جريدتي النجاح والبلاغ الجزائري.

وقد كانت للحافظي كتابات كثيرة حول الخسوف والكسوف، وكذلك إثبات الأهلة بالحساب الفلكي، وفي الشمس والاعتدال الطبيعي، وفي جذور الحياة على الأرض...!

هذا هو العلامة المولود الحافظي، إذ إن ابن باديس هو أول من لقبه بهذا اللقب، ومن المؤسف أن كثيرا من مثقفينا وطلبتنا، بل وعلمائنا، لا يعرفون هذه الشخصية الفذة من أبناء هذا الوطن المفدى.

انكب الثعالبي على الدراسة في بجاية لمدة سبع سنوات، تلقّى خلالها علومًا جمّة على يد علماء أجلاء : أبو الحسن عليّ بن محمد اليليتني "اليليتني"، والشيخ أبو القاسم المشدالي والشيخ أبو مهدي عيسى اليليتني، والفقيه السيد المحقّق أبو الحسن عليّ بن عثمان المانجلاتي وعليه كانت عمدة قراءته، وأخذ العلم عن المحقّق أبي الربيع سليمان الزواوي، علم تجويد القرآن، والشيخ عليّ بن موسى"[1]. يضاف إلى هؤلاء شيوخ آخرون درس عنهم الثعالبي مثل أبي العباس النقاوسي، كما درس الثعالبي رفقة زميله الشيخ أبي زكريا يحي العيدلي[2] في بجاية على يد الشيخ أحمد بن إبراهيم البجائي (ت: سنة 840هـ/1434م)، حتى قال في شأنه الثعالبي "لو أن رجلاً لم يعص الله قط، لكان أحمد بن إبراهيم[3]، كان في ذلك أعلم علماء بجاية آنذاك، وكان تربطه علاقات حسنة مع السلطان عبد العزيز ـعزوزـ المتوكل[4].

كان الشيخ عبد الرحمن الثعالبي على علم بما يحيط به من أخبار العلماء الأجلاء، فمثلاً جاءه خبر وفاة العلامة أبو عبد الله محمّد بن عرفة المسيلي[5] وهو مقيم ببجاية رغم أن سنّه كان 17سنة فقط. كان الثعالبي دقيقًا في تاريخه لأشياخه فيقول: "بلغني خبر وفاته (ابن عرفة) وأنا ببجاية، ثم كانت رحلتي إلى تونس بعد موته بست سنوات، فتلقيت تلاميذته وحضرت مجالسهم"[6].

---

1. أبو القاسم محمد الحفناوي : *"تعريف الخلف برجال السلف"*، ج 2، تقديم محمّد رؤوف القاسمي الحسني، موفم للنشر الجزائر 1991، ص97 ـ **2.** نسبة إلى منطقة بني عيدل، لها حمام سيدي يحي العيدلي، بدائرة أقبو ولاية بجاية، ولمعرفة يحي العيدلي، انظر أبو القاسم الحفناوي، مرجع سابق ج 2 ص 463ـ466 ـ **3.** عليّ أمقران السحنوني، هذا الشيخ المجهول (الشيخ أبو زكرياء العيدلي) 881هـ/1476هـ، *"مجلة الدراسات التاريخية"*، العدد الرابع معهد التاريخ، جامعة الجزائر 1988، ص 39 ـ **4.** نفسه ص 40 ـ **5.** محمّد بن عرفة الورغمي المسيلي (716-803/1315-1399) كان معاصرًا وزميلاً للمؤرخ عبد الرحمن بن خلدون فهو مدفون بمقبرة الجلاز بتونس تجاوزت شهرته المحيط الإفريقي والمملكة الحفصية إلى آفاق العالم الإسلامي، كانت مدرسته بجامع الزيتونة بتونس وشعارها الاجتهاد ومحاربة التقليد، ومن أشهر تلاميذته: الأبي، والبرزلي، واليسيلي، وأبو حامد بن ظهيرة والإمام ابن مرزوق الحفيد الجزائري والمؤرّخ ابن الشماع، انظر محمّد الهادي العامري، تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون بين الازدهار والذبول من القرن السابع الهجري إلى ختام القرن الثالث عشر الشركة التونسية للتوزيع، تونس 1974، ص 160-162 ـ **6.** عبد الرحمن الثعالبي، *"العلوم الفاخرة"*، مخطوط مصدر سابق، ج 1 ورقة 38ـ39.

لم يتطرّق الثعالبي إلى ذكر نوعية المناهج الدراسية ومضامينها والمؤلفات الّتي درسها في بجاية بينما أطنب ذلك في ذكره للتصانيف الّتي قرأها خارج الوطن الجزائري على الأقل في المصادر والمراجع اعتمدناها هنا.

2.3. رحلته إلى تونس :

كانت تونس البوابة الأولى لرحلته العلمية الطويلة إلى خارج الجزائر لعدة أسباب: استفادة دراسته الأساسية في بجاية، فأراد المزيد من طلب العلم، فكانت لتونس جامع الزيتونة فهو تحديدًا منارة علم وإشعاع فكري وحضاري للطلبة العرب والمسلمين، فكانت هذه الجامعة في تنافس علمي كبير مع نظيرتيها القرويين بفاس والأزهر بالقاهرة، ووجود علماء فطاحل أفذاذ بهذه الجامعة تعمل جاهدة على استنهاض الهمم والتأسيس لنهضة علمية وأدبية شاملة تحاول جاهدة المزج بين الحداثة والأصالة.

ففي هذه الفترة كانت الجزائر الشرقية وبجاية خاضعة للدولة الحفصية. دخل الثعالبي تونس في أواخر 809 هـ/1405م، وأوائل 810هـ/1406م[1]، وهي السنة الّتي توفي بها عبد الرحمن بن خلدون، وكان عمره آنذاك أربعة وعشرين سنة. وإن كنّا لا ندري متَى تزوّج الثعالبي، إلاّ أنّه من المرجّح أنه خلف قبل ذهابه إلى تونس ثمانية أولاد من أم واحدة[2] أربعة ذكور وأربعة إناث هم: محمّد الصغير (ت:846هـ/1440م) ومحمّد الكبير ومحمّد الملقب بابن الصالحين، ويحي وفاطمة ورقية ومحجوبة وعائشة. انقطع نسل الشيخ عبد الرحمن الثعالبي من صلبه "ولم يترك أبناؤه أولادًا ما عدَا أبا عبد الله محمّد الكبير، فقد ترك بنتًا اسمها "كلا" توفيت[3].

---

1. المصدر نفسه، ج 1، ورقة 39 ـ 2. محمّد بن ميمون، مصدر سابق، ص 343-344.
3. المصدر نفسه ص 344، دفن الكل فيما يعرف اليوم بمقبرة الثعالبة، وللمزيد عن مسجد سيّدي عبد الرّحمن الثعالبي، زاويته، ضريحه، انظر أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ج 5، ص:32.67.121.

بقي عبد الرحمن الثعالبي في تونس أزيد من تسع سنوات، كانت كلّها كدًّا وجدًّا وعملاً دؤوبًا في البحث والتنقيب والتحقيق والتدقيق. إذا صحّت مقولة "مؤرّخ التاريخ القديم مؤرّخ ملوك لا مؤرّخ شعوب"، وهي غير ذلك على الإطلاق، فإن الشيخ عبد الرحمن الثعالبيلم يثبت عنه أنه أرّخ للملوك، بل كان يتحاشى الخوض في الأمور السياسية، وآل على نفسه التفرغ للعلم والتبحر فيه. والّذين كتب عنهم من العلماء العاملين الّذين لا يطلق عليهم "علماء البلاط"، هذه الجدلية القائمة بين العلماء العاملين والحكام، حساسية متجذرة في الفكر الإسلامي، والّذي من المفروض أن يكون هناك تعاون بين الإثنين.

وهكذا لم يكن الثعالبي من مؤرخي البلاط ومن ثمّ يمكن الوثوق والاطمئنان لما يقوله، وبالتالي فكلامه أكثر توثيقية ومصداقية رغم أن الحياة الفكرية ليست بالأمر السهل، فيها العديد من المتاهات من ميولات ونزاعات تستوجب أخذ الحيطة والحذر.

درس الثعالبي في تونس بجامع الزيتونة على يد جهابذة منهم: الشيخ أبو المهدي عيسى الغبريني، يقول عنه الثعالبي: هو "أحد زمانه علمًا ودينًا وورعًا، وإليه كانت الرحلة"[1]، كما تلقّى علم المعقول على يد شيخه أبي عبد الله محمد بن خلفه الأبيسي وقد أجازه في القراءات وكتب له بخط يده بعد رجوع الثعالبي إلى تونس قادمًا إليها من مصر. ونهل من منابيع العلم وحياضها على يد شيوخ آخرين في تونس دائمًا، هم: أبو القاسم البرزلي والشيخ يوسف يعقوب الزغبي.

3.3. رحلته إلى المشرق :

لم يكتف عبد الرحمن الثعالبي بما تحصّل عليه من علوم في بجاية وتونس وراح يبحث الاستزادة من رحيق المعرفة، فتوجّه مباشرة إلى الديار المصرية سنة 817هـ/1415م[2] فالتقى بشيوخها الأفاضل ودرس عنهم ومنهم:

---

1. عبد الرحمن الثعالبي، *"العلوم الفاخرة"*، مخطوط، مصدر سابق، ج 1، ورقة 38.
2. عادل نويهض، مرجع سابق، ص 89.

الشيخ أبو عبد الله محمّد الجيلالي فسمع عنه البخاري وقرأ عليه كثيرًا من اختصار *"إحياء علوم الدين"* لأبي حامد الغزالي وشيئًا من قراءة الموطأ[1]. كما درس وهو بمصر على يد الشيخ أبي عبد الله البساطي، وعلى الشيخ وليّ الدّين أحمد بن عبد الرحيم العراقي شيخ المحدثين، فقرأ علومًا جمّة معظمها في علم الحديث، وأجازه بخط يده[2]. وأضاف الأستاذ محمّد بن عبد الكريم شيوخًا آخرين لم يذكرهم الثعالبي في مخطوطه *"العلوم الفاخرة"* وهم: البلالي، وأبو عبد الواحد بن إسماعيل الغرياني وأبو القاسم الحافظ العبدوسي، وأبو محمّد عبد الله بن مسعود بن القرشي، الشهير بابن القرشية[3].

مكث الثعالبي بمصر حوالي سنة فقط[4] ثم انتقل إلى مدينة بورصة[5] فاستقبل استقبالاً حارًا وأقيمت له زاوية هناك وحبست عليه[6]. ومن هناك توجه الثعالبي إلى الحرمين الشريفين بالحجاز لأداء فريضة الحج، فدرس على بعض شيوخها وأجازوه. ومن الحج عاد إلى مصر ومنها إلى تونس إلاّ أن الدكتور أبو القاسم سعد الله يرَى بأن الثعالبي، قد يكون زار أيضًا بغداد ودمشق والقدس[7].

4.3. عودته إلى تونس :

لم تكن رحلة الثعالبي إلى المشرق طويلة، ربما لأنها كانت في سياق ذهابه للحج، رغم أن القاهرة كانت حاضرة العالمين العربي والإسلامي في عصر المماليك، يقصدها العلماء من كل حدب وصوب، فيجدون من سلاطينها كل التشجيع والترغيب في العلم والبحث والتأليف، خاصة وأن مصر كانت قد انتقلت إليها الخلافة العباسية.

---

1. عبد الرّحمن الثعالبي، *"العلوم الفاخرة"* ، مخطوط، مصدر سابق، ج 2، ورقة 39.
2. المصدر نفسه، ورقة 30 ـ 3. محمّد بن ميمون، مصدر سابق، ص 340 ـ 4. عبد الرّحمن الجيلالي، مرجع سابق، ج 2، ص 272 ـ 5. كانت عاصمة الدولة العثمانية قبل نقلها إلى اسطنبول بعد فتح القسطنطنية سنة 1453م، الّذي لم نعثر لحد الآن على الأقل على رد فعل الثعالبي على هذا الفتح المبين، إن كان لازال حيًا إلى هذا التاريخ كما تداول ذكره ـ 6. عبد الرّحمن الجيلالي، مرجع سابق، ج 2 ص 273ـ 7. أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ج 1، ص 92.

عندما رجع الثعالبي إلى تونس سنة 819هـ/1417م وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، وجد شيخه أبا مهدي عيسى الغبريني قد توفي وجلس مكانه في التدريس والفقه أبو عبد الله محمّد القلشاني فلازمه مدة. ودرس للمرة الثانية علم الحديث على الشيخ أبي القاسم بن أحمد البرزلي. كان الثعالبي يتسم بالموضوعية في نقله للأخبار وهو يؤرّخ للحركة العلمية والفكرية، ففي الكثير من المرات كان يقول لم يفتني من ذاك الكتاب إلاّ اليسير. لقد كان الثعالبي شغوفًا بالعلم تلهفًا له، فكان يملك قابلية واستعدادًا فطريًا كبيرًا لتلقي علومًا شتى، دون كلل ولا ملل وأبلى من أجله البلاء الحسن، فكان قوي الحجة متفوقًا في أغلب العلوم وخاصة علم الحديث، فهو آية من آيات العبقرية الجزائرية.

لقد تميّز عن أقرانه بالذكاء الوقاد، وقوة العارضة والبحث والمزج بين العلوم النقلية والعلوم العقلية.

كان الثعالبي راضيًا ومعتزًا بالمكانة المرموقة الّتي وصل إليها والّتي كانت نتيجة عمله المضني والضبط والانضباط الّذي تميّز به.

لذلك نراه فخورًا بالإنجازات الّتي حقّقها، وفي هذا الصدد يقول : "لم يكن يومئذ في تونس من أعلمه (البرزلي)، يفوقني في علم الحديث... وإذا تكلمت فيه أنصتوا وتلقوا ما أرويه بالقبول... وكان بعض فضلاء المغرب هناك، يقول علينا من المشرق رأيناك آية للسائلين في علم الحديث"[1]. وبهذا يكون الثعالبي قد تصدر للتدريس في تونس وفرض نفسه على أقرانه وانتزع مكانته العلمية والأدبية بجدارة واستحقاق، ونال شهرة كبيرة في تونس وفي باقي دول العالم الإسلامي.

لم يكتف الثعالبي بما أخذه من مصر وغيرها من العلوم، بل طبّق الحديث النّبويّ الشّريف "أطلب العلم من المهد إلى اللحد"، ففضّل أن يكون متعلّمًا، ومعلّمًا وعالمًا.

يتبع...

1. عبد الرّحمن الثعالبي، *"العلوم الفاخرة"*، مخطوط، مصدر سابق، ج 2، ورقة 39.